

الدين استفادوا منه يتناقضون في عزوه إلى القرآن والإسلام ومحمد
فإن أولى العلم يرفون هذا الحق وقد أعلنوه في مؤلفاتهم (راجع
ما كتبه جيبون الإنجليزي ودريير الأمريكي وسديو وجوستاف
لوبون وغيرهما من الفرنسيين)

قلنا انتقالات، فأى لفظ أدل من هذا اللفظ على ما نحن بصدد؟
كان الناس قبل القرآن ومحمد يعتبرون الدين ذلاً واستكانة،
واستخذاء لدوى المسكنة، فلما جاء الإسلام صاح بالناس :
ارفعوا رءوسكم، إنما التقوى في الصدر، وعلو الهمة من الإيمان،
ولا ينبغي لأحد أن يذل نفسه، « ولله للمزة ورسوله وللؤمنين »
وكانوا يظنون أن العبادات سخرة، فقال لهم الإسلام : كلا
إنها صلة بين المخلوق والمخلوق، وإنها يجب أن تكون ميسرة غير
مرهقة « قمت ونمت، وصمت وأفطرت، فإن لبدنك عليك حقاً،
وزوجك عليك حقاً، ولزورك (أى زائريك) عليك حقاً » إن
الرجل ليعتبر عابداً لله في كل فائسة تصدر منه حتى في اللقمة
يرفعها إلى فم امرأته

وكانت الجماعات لا تفكر في المقاصد الأدبية الرجوة من
الاجتماع، فلما جاء الإسلام قال لها : إنما الاجتماع للتعاون على
استكمال وسائل البقاء، وهي لا تكون مباركة إلا إذا كان فيها
تعاون على البر، وتضافر للتأدي إلى أكمل ضروب الحياة؛
أما للتعاون على الإثم والعدوان فليس من شرف الإنسانية في شيء
وكانوا لا يقيمون للعلم وزناً إلا ما صدر عن الدين نصبوا
أنفسهم بين الناس وبين الله حجاباً، فقال لهم الإسلام : « هل
يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ». « يرفع الله الذين آمنوا
منكم والذين أوتوا العلم درجات »

وكانوا يمدون العقل عدواً للدين، ويتمددون الخروج على
أحكامه مشايمة للذين ربهم على عصيانه، فقال لهم الإسلام :
الدين أساسه العقل، ولا دين لمن لا عقل له

وكانوا يتخيلون أن كل من خالفهم في الجنس والدين واللغة
أعداء لا يصح أن تجمعهم بهم صلة، فلما جاء الإسلام صاح بأهل
الأرض قاطبة : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى،
وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم

ذكرى الهجرة النبوية

لداود محمد فريد وعبي



لا يذكر
ذاكر الهجرة
إلا ذكر القرآن
والإسلام ومحمد،
وهي ذكريات
حافلة بالأحداث،
موقرة بالانقلابات
التي تعتبر مبدأ
انتقال عالم لم
يسبق للعهد
البشرية أن مر بها
مثله.

نعم لأن الانتقال الذي أحدثه الإسلام في جزيرة العرب
لم يقتصر عليها، ولكنه تناول للعالم كله إما مباشرة وإما بواسطة
فكان أثره أبداً أثر سجله تاريخ العلم الاجتماعي للإنسانية من لدن
نشأتها إلى اليوم

انتقال في فهم معنى الدين، انتقال في إدراك حقيقة العبادة،
انتقال في تبيين أهداف الاجتماع، انتقال في اعتبار مكانة العلم،
انتقال في الاعتداد بسلطان العقل، انتقال في تقرير حقوق
الإنسانية، انتقال في إقامة الحقوق الطبيعية، انتقال في تحديد
معنى المساواة والمدل

انتقالات ذرية في كل ضرب من ضروب الشؤون الإنسانية
سرت إلى للعالم كله بتقلب المسلمين في البلاد، فأثرت في مجموع
البشرية تأثيراً لا يشق به غيره من الانتقالات الأدبية، كان من
نتائجها تطور بعيد المدى في كل مجالات الحياة المالية. فإذا كان

إن الله عليم خبير . فكان الإسلام بهذا الأصل أول من أوجب أن تكون بين الناس كافة زمالة إنسانية ، يتعاونون تحت ظلها على تحقيق أغراض الحياة العامة ، بصرف النظر عما ينرق بينهم من جنس ولنة ودين

وقوى هذا الأمر وضوحاً فقال : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين »

بل وصام بالرحمة ومراعاة قواعد العدل مع أعدائهم الذين قاتلوهم ليفتنوهم عن دينهم ، وأخرجوهم من أرضهم فقال : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ، وقال : « ولا يجرمكم شنآن قوم (أى ولا يمحلتكم بنفسكم لقوم) أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب »

وزاد في التنبيه على وجوب مراعاة الحقوق الإنسانية ، فأمر ألا يتعقب المنتصر في الحرب مهزوماً ، وألا يجهز على جريح وألا يقتل شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً ولا رجلاً غير عارب حتى خدع المقاتلين ، وألا يهدم ديار الأعداء ولا أن يحرق أشجارهم ، ولا أن يمشوا فيها فساداً

وكان الناس لا يعرفون الحقوق الطبيعية لإخوانهم في الإنسانية بصرف النظر عن أديانهم وأجناسهم ولغاتهم ، فكانوا يجردون من ليس منهم من كل حق ، ويسمحون لأنفسهم بقتلهم وسلبهم إن ظفروا بهم ، فإن منسوا عليهم بالبقاء استعبدهم وأذلهم ، فلما جاء الإسلام قرر أن لبنى آدم مهما كانت ملتهم وبيئاتهم ولهجاتهم حقوقاً طبيعية لا يجوز العدوان عليها بنير حق

وكان الناس لا يدرون كنه المساواة والعدل ، فغضوا لنظام الطبقات ذوات الامتيازات ، فكان لرجال الدين والسرعة والمجاهدين حقوق ليست لغيرهم من أفراد الشعب ، فكانوا يهبطون الهداه بالتكاليف والآثامات ويخلون أنفسهم منها . فلما جاء الإسلام حطم كل هذه الأوضاع ، واعتبر الناس كلهم سواء أمام العدل : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على

أنفسكم أو الأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً »

فنحن إذا ذكرنا الهجرة ، وحى دور من أدوار الكفاح الإسلامى في سبيل الإصلاح ، ذكرنا كل هذه الانتقالات الأدبية التى لو اطلع عليها علماء الاجتماع لدهشوا ، لأن كلا منها لم يتقرر في العالم المتقدم إلا بعد ثورات دموية ، تلها انقلابات عنيفة ، وسبقها تطورات عقلية وأدبية دامت قروناً طويلة ؛ فإن كانت قد تولدت طفرة على يد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، في مدى أقل من ربع قرن ، وفي أبعد البيئات عن توليد أمثالها ، فهي كبرى الآيات الإلهية ، جاءت مناسبة لموطن الانتعاش من عقول أهل الزمان الأخير ، فإنهم قد يرون القمر ينشق ، أو الجبال تندك فلا يتأثرون ، ومعضون يلتصقون لها عللاً طبيعية ، ولكنهم لا يستطيعون أن يلتصقوا لهذه الانتقالات الفجائية الباهرة عللاً طبيعية ، ولا سيما في بيئة لا تنتج واحدة منها . ولقد نسيت جميع الآيات التى صحت الرسالات السابقة ومضت بمضى أيامها ، إلا هذه الآية التى خص الله بها خاتم رسله ، فستبقى ما بقى الإنسان ذا عقل يحيله في الأمور ، وما بقى العلم يحل كل مستور .

محمد فريد روى

صدرت الطبعة الجديدة من :

تاريخ الأدب العربى

بمقلم
احمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر
ومن إدارة الرسالة
الثمن ٢٠ قرشا